الفصل الرابع

في الكلام على موطن الزنوج
وأصلهم وعلاقتهم بسائر الأجناس

لا يصل أحد من العلم إلى ما يحتاج
إليه حتى يتوصل إلى مالا يحتاج
إليه فإذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج
إليه إلا بما يحتاج إليه قد صار
ما لا يحتاج إليه ما يحتاج إليه.

الخليل بن أحمد الفراهيدي

من هم الزنوج وما منزلتهم بين الأجناس

إن العرب تطلق على من في بشرته السواد لفظ الزنج أو النوبة أو الحبشة أو السودان كألفاظ مترادفة لأصحاب اللون الأسود في جلودهم.

كما كان الأوربيون يطلقون كلمة نيغرو أو البغمة أو القزم الأسود أو الغورلا على الجنس الأسود من الناس.

وأول من أخبر عنهم **هيرودت** أبو التاريخ في القرن الثالث قبل المسيح حيث كتب عن شمال أفريقيا وصحراء ليبيا على لسان خمسة فتيان أرسلهم أصحابهم للبحث عما في بادية ليبيا أخبروا عن وصولهم إلى بلد أهله كلهم سواد البشرة قصار القامة بلدهم حول نهر كبير فيه تماسيح يجري من الغرب إلى الشرق[1].

وكذلك كتب عنهم **هانون القرطاجني** الذي طاف حول الساحل الغربي للمحيط الأطلسي بالقرن الخامس قبل المسيح.

وكان الرأي السائد في جميع أنحاء العالم أن الزنوج أحط الأمم وأنهم هم الحيوان المتوسط بين القرد والإنسان لذلك كان الفراعنة يجلبونهم إلى قصورهم للتسلية برقصهم ويجندونهم في حروبهم وكانت أسلحتهم من الأحجار على رؤوس رماحهم كإنسان العصر الحجري. وكان العرب في جاهليتهم كسائر الأمم في احتقارهم الجنس الأسود من الناس مما حمل عنترة

(١) طبقات الأمم لزيدان ص ١٢١. وبلاد الزنوج لعبد الله حشيمة ص ٢٧.

العبسي الذي اكتسب سواد اللون من أمه فعده العرب من غربائهم فجعل يدافع عن نفسه بقوله :

يعيبون لونى بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

أما الأديان السماوية التي سبقت الإسلام فلم تغير شيئًا من وضع الزنوج في المجتمع البشري ولم تقل التوراة كلمة ترفع منزلة الزنوج في نفوس اليهود والأمم الأخرى وجاء الإنجيل وصار على نمط التوراة في ذلك إذ لم يقل شيئًا يرفع الزنوج من حضيض الخسف والذل إلى أوج الشرف والعزة .

ولما جاء الإسلام أخذ في تغيير هذا الوضع وتحسين هذا الأمر بالتدريج نذكر من ذلك ما يأتي :

الإسلام أول دين رفع منزلة الزنوج

جاء الإسلام وأدرك الناس عمومًا يحتقرون الزنوج فبدأ استئصال هذا الاحتقار من أعماق النفوس بالتدريج .

كان أبو ذر الغفاري من أكابر الصحابة ومن أخلص أحباب النبي فسمعه النبي يومًا يعير بلالاً بلونه حين قال له يا ابن السوداء فقال له النبي أتعيره بلونه يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية فجعل أبو ذر يسترضي بلالاً حتى أرضاه .

ومما فعل النبي لقلع جذور هذه الجاهلية من نفوس العرب ما يأتي :

أولاً: تعيينه هذا الأسود الحبشي مؤذنًا له وداعيًا جميع الأشراف إلى الصلاة مما غاظ بعض سادة العرب (قريش) عام فتح مكة عندما أمر النبي بلالاً أن يصعد على سطح الكعبة فيؤذن للصلاة وقال أحدهم :

(ألم يجد محمد من يدعو الناس إلى الصلاة غير هذا الغراب الأسود).

ثانيًا: تزويجه زينب بنت جحش التي ولدتها صفية بنت عبد المطلب من أشراف مكة فزوجها النبي زيد بن حارثة الزنجي الذي كان عبدًا له فأعتقه وجعله مولاه.

ثالثًا: أمره بطاعة الأمير رغم سواد لونه وتعيينه الأسود أميرًا على الأبيض وذلك في تعيينه أسامة بن زيد أميرًا على جيش كان فيه أبو بكر وعمر وأمرهم بطاعته في قوله: عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن على رأسه زبيبة فنتج من أثر ذلك أن أذعن الناس وخضعوا لكافور الأخشيدي من المماليك حين تولى على مصر وفيهم العرب والترك والأقباط.

ثم ظهر من بركات الإسلام دول وممالك في غرب أفريقيا على أيدي الزنوج اعترف بعظمتها وبفضلها العالم كله.

منها مملكة غانة ومملكة سنغي ومملكة مالي ومملكة برنو واتحاد ممالك هوسا السبع وكلها لم يقع تحت ظلال اليهودية ولا النصرانية ولكنها وقعت تحت ظلال الإسلام.

أين الموطن الأصلي للزنوج

قبل الخوض في هذا الموضوع يجب أن نحاول الإجابة على ما يأتي:

١ - هل كان سواد لون الزنوج من طبيعة الجو وأثره في الهواء كما قال ابن سينا وابن خلدون فيكون هناك زنوج بيض وزنوج سود كما قال زيدان.

أم كان سواد لونهم من أثر دعوة نوح على ابنه كنعان كما ذكر أهل التوراة؟

٢- هل جعل الله سواد لونهم آية حسبما قاله القرآن في الآية الآتية ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

ويشهد لصحة هذا وجود بعض السود بين البيض وبالعكس إلى اليوم تحت مناخ واحد وإقليم واحد.

٣- هل كان موطن الزنوج الأصلي بآسيا في الأرخبيل الهندي أم في شرق أفريقيا بروديسيا أم في غرب أفريقيا كما شاهدهم الرحالة الأولون؟

فالجواب على السؤال الأول والثاني ما حققه القرآن كالقضاء والقدر وما ذكره ابن سينا كالسبب والعلة فلا مانع من الجمع بين الأمرين.

أما الجواب في الموطن الأصلي للزنوج فيقول العقاد في كتابه الإنسان:

إن أفلاطون كتب رواية جاء فيها أن هناك قارة سماها أفلاطون «بقارة مو» كانت بين أمريكا وآسيا وأفريقيا، ثم غرقت هذه القارة منذ سبعين ألف سنة قبل الميلاد وقد غرقت في المحيط الهادي وعم البحر مساحته الواسعة.

ويقول عبد الله حشيمة[1]:

«إن هناك قارة عظيمة تسمى ليمريا وهي بين أفريقيا وأمريكا كانت موطنًا أصليًا للزنوج ولكنها غرقت في المحيط مع أهلها وكانت مدغشقر من بقايا تلك القارة وكانت بهذه القارة بعض مضيق يعبر منه الناس إلى قارة أفريقيا وأوربا وآسيا.

(١) بلاد الزنوج: ص (١٦) وما بعدها.

ومن هذه القارة نزح الزنوج إلى جميع القارات قبل حادثة الغرق» اهـ.

ويعرف سكان القارة بالغورلا لونهم أحمر على نحو ما به سمى آدم وحواء كما مر ذكره وأورد عبد الله حشيمة رأيا آخر وقال:

قيل إن الصحراء الكبرى كانت أقل اتساعًا وأكثر خصبًا مما عليه الآن وكانت صالحة لموطن نوع كبير من الإنسان والحيوان.

وكان هذا الجنس من الناس يسكنون أفريقيا من أقصاها إلى أقصاها ثم توسعوا في فتوحاتهم حتى احتلوا أوربا.

ويطلق عليهم اسم النيغريل أو البغمة أو الغورلا قامتهم قصيرة لا يتجاوز طولها المتر ونصف ورءوسهم وصدورهم كبيرة جداً ولونهم أقرب إلى الحمرة دون السواد.

وقد وجد المنقبون بعضًا من جماجمهم وهياكلهم في أماكن مختلفة في أوربا.

ويقول الأستاذ جرجي زيدان في طبقات الأمم إن الزنوج نوعان:

الزنوج الشرقيون وهم في أستراليا وماليزيا وفلبين وغانا الجديدة.

والزنوج الغربيون هم زنوج أفريقيا المنتشرون في أواسط أفريقيا أو جنوبها أو غربها من وراء الصحراء الكبرى إلى رأس الرجاء الصالح.

أفريقيا هي الموطن الثاني للزنوج

إذا صح أن يكون الموطن الأول للزنوج هي قارة (مو) أو قارة (ليمريا) التي غرقت وكانت متصلة بأفريقيا وآسيا وأمريكا قبل حادثة الغرق فلا مانع

أن يهاجر منها الزنوج إلى أفريقيا عمومًا لتكون موطنًا ثانيًا لهم فيأتي المؤرخون بعد ذلك يقولون على اختلاف ألسنتهم وأزمتهم وأمكنتهم إن السكان الأولين في أفريقيا هم الزنوج الذين استعمروها قبل غيرهم بنحو عشرة آلاف سنة.

وإنهم الأولون في مصر قبل أن يطاردهم الأقباط منها ليحتلوا مكانهم.

وإنهم الأولون فى ليبيا قبل أن يطاردهم النسامون والفينقيون والقرطاجنة.

وإنهم كانوا منتشرون في أفريقيا قبل أن يحاصروا في غربها حيث أدركهم بها الرحالون الأولون من الفرس والقرطاجنة واليونان والرومان والعرب.

يقول السيدج: د. كلارك مدرس التاريخ بجامعة لندن سابقًا:

كانت أفريقيا خصوصًا غربها موطنا أصليّاً لأنواع الزنوج منذ بضعة آلاف من السنين وكانت الشعوب الآسياوية تهاجر من الأقطار الباردة أو القاحلة إلى أفريقيا.

وكان المهاجرون الجدد يطاردون السابقين من مواطنهم الأولى فيضطروهم إلى مواطن أخرى بعيدة كما يطاردونهم من الشمال إلى الجنوب وإلى الغرب فينزحون من المناطق العشبية إلى الغابات الكثيفة.

ومضى كلارك يقول:

ثم إن الحروب التي تقوم من أجل التنازع على الحكومة والدولة والتي تنتهي بسقوط بعض ممالك سودانية وقيام ممالك أخرى كانت تدفع المهاجرين من المناطق العشبية إلى المناطق الغابية ومن ضفاف نهر النيجر الشمالية إلى الجنوبية تجاه الساحل الغربي للمحيط.

جنوب النيجر في عهد ابن خلدون

ومن الشواهد والأدلة التي يستدل بها على أن الشمال أكثر عمرانًا من الجنوب نجد أن في الشمال أماكن مكسوة بالحشائش الخفيفة التي تجعلها صالحة لسكنى الناس.

وفي الجنوب الغابات الكثيفة التي هي عرائن الحيوانات الضارية كالفيول والأسود والثيران والأفاعي من بقايا الحيوانات المندرسة اليوم وكانت تعيش في عصر الحيوانات وأول عصر الإنسان لذلك يكثر العمران في الشمال ويقل في الجنوب.

ولقد كتب العلامة ابن خلدون في القرن الثالث عشر الميلادى وهو يصف الأوضاع والأحوال الراهنة للأمم والدول بذلك العهد ويقول:

(وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم (الملم) وهم كفار يكتوون في وجوههم وأصداغهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان الأعجم

من المناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما يأكل بعضهم بعضًا وليسوا في عداد البشر)[1].

(قلت) هذا ما كتبه الكاتب العربي الكبير والمؤرخ الاجتماعي الشهير وهو عالم تونسي مغربي في شمال أفريقيا وهم أقرب الناس إلى سكان غرب أفريقيا وقد أخبر في تاريخه وفي مقدمة تاريخه عن وجود ممالك سودانية حول نهر النيجر وذكر غانه ومالي وكانم وبرنو وتكرور ولم يذكر شيئًا عن مملكة يوربا ولا عن مدينة إليفى مما يدل على عدم وجود ما يستحق الذكر حتى وإن كانت المدينة قائمة منذ القرن العاشر الميلادي فإنها غير معدودة في جملة حواضر العالم المتمدن وربما تكون العمارات من الطين والخوص حين ذاك.

لذلك لم تدخل مملكة يوربا وعاصمتها ضمن الممالك والدول التي كتب عنها الرحالة الأولون مثل البكرى وابن حوقل وابن بطوطة.

عود على بدء في أول مدينة لبلاد يوربا

يكاد يتفق رواة تاريخ يوربا على أن مدينة إليفى هي أول مدينة في بلاد يوربا حتى ولو كانت مبنية بالقش والخوص ولحاء الأشجار أو بالطين اللازب المتوفر في تلك الجهات وتلك الأزمان ولم تكن مبنية بالأحجار وبالطين المحروق كما هو الأمر في غانة ومالي وسنغي ولكنهم يختلفون في تعيين مؤسسها وبانيها.

ومن قائل إنها كانت موطنا لقبائل من الجن ولما جاء اليرباويون المهاجرون هجموا على أولئك الجن وطاردوهم إلى الجبال واحتلوا مكانهم.

---

(١) كلام على الإقليم الأول من المقدمة.

وعلى صحة هذا القول يؤخذ أن السكان الأولين كانوا من الزنوج القصار لذلك سموهم الجن ومن قائل إن السكان الأصليين كانوا من الهمج غثاء الزنج لا يعرفون ثقافة ولا حضارة ولما وفد عليهم اليرباويون وكانوا أصحاب الثقافة والحضارة غلبوا على الأولين وصاروا ملوكا وصار المغلوبون رعايا.

واستطرد أصحاب هذا القول وأضافوا:

إن قائد الهجوم هو الجد الأعلى للملوك حيث أنجب ستة أولاد وبنتا واحدة فصار كل ولد منهم ملكًا متوجًا على المدينة التي أسسها أو غلب عليها من أيدي الهمج.

بقى أن نعرف كيف يصح في العقل أن يرجع الملوك والرعايا إلى رجل واحد في بلد واحد في عهد واحد على قول من يزعم أن قبائل يوربا ملوكًا ورعايا نزحوا من رجل واحد.

وهل يصح أن يتوج ذلك الرجل نفسه على نفسه أو أن يتوج نفسه على أولاده ثم يصبح أولئك الأولاد ملوكًا بدورهم على أنفسهم وعلى أولادهم؟ كلا وألف كلا.

اللهم إلا إذا كان السكان الأولون رعايا والوافدون عليهم رعاة، ذلك هو الأصح.

هذا وقد جاء في تاريخ ممالك هوسا السبع أن أبا يزيد الذي جاء من الشرق حتى نزل برنو ثم توجه منها إلى دوراه وتزوج بها وأنجب سبعة أولاد صاروا فيما بعد ملوكًا على مقاطعات هوسا السبع مثل قصة يوربا ولكنها أوضح بيانًا وأنسب قبولاً مما يقول اليوربا.

وقد ذكر مؤرخو بلاد هوسا أن قبائل هوسا تكونت من عدة أصول متباينة تكلموا بلغة رجل اسمه هوسا اللغة التي أخذت أخيراً جملة من العربية والحبشية والنوبية والزنجية والبربرية.

ملوك وقبائل يوربا وأقيالها

صار من قبيل المتواتر المسلم به عند اليرباويين عموماً أن قائد اليرباويين إلى مدينة إليفى المسمى **أودودوا** أنجب ستة أولاد وبنتًا واحدة وكلهم صاروا ملوكًا.

وأكبرهم الذي تملك على مدينة (بنين) ثم اختار أهل بنين من أبناءهم من قام مقامه ثم قامت بمدينة بنين مملكة عظيمة قويت بينها وبين ملك البرتغال صلة متينة في القرن السابع عشر الميلادي.

وثانيهم الذي تملك على مدينة (**إيلاه**) التي تقع بالشرق الشمالي من مقاطعات عوشن بين أوشوبو وإكرون ويلقب (ملك باميه) باسم عَورَنغُو.

وثالثهم الذي تملك على مدينة (كيتو) التي تقع الآن في جمهورية بينين بحكم التقسيم السياسي الناتج عن مؤتمر الصلح المنعقد في برلين عام ١٨٨٤م.

ورابعهم الذي تملك على مدينة (سابي) التي تقع كذلك اليوم في جمهورية بينين مثل كيتو.

وخامسهم الذي تملك على مدينة (أجاشي) باسم **اولوبوبو** التي تقع الآن في ولاية كواره تحت سلطنة سوكوتو بحكم اتحاد إمارة إلورن.

وسادسهم الذي خلف أباه في مدينة (إليفى) ثم خرج لفتوحاته وأناب عن نفسه حاكمًا باسم (عوني) بمعنى ليس لك الملك على حد تعبير أهل مدينة عويو.

وأخيرًا أسس هذا الفاتح مدينة عويو واستوطنها بدلاً من مدينة إليفى وتولى على العرش بعده أبناؤه وتركوا مدينة إليفى لأبناء عونى يتولون على عرشها إلى اليوم.

وسابعهم البنت التي أنجبت ملك (أووو) إحدى قبائل يوربا التي تمزقت بالحروب واندمجت مع مدينة إبادن ومدينة أبيكوتا.

قد تفرعت من هذه الأصول السبعة عدة ملوك صغار يستمدون تيجانهم من تاج ملك من الملوك السبعة وتفرعت منها أقيال لا يلبسون التاج في القرى والأرياف.

الينبوع التطوري لقبائل يوربا

ليس من كتاب تاريخ أو كتاب أساطير نيجيريا من كتب أو قال أو نقل عن غيره أن أصل يوربا من القرد ثم تطور إلى الإنسان.

وليس منهم من قال أو نقل أن أصل يوربا من الزنوج أو النيغرو.

ولكن كتاب تاريخ آسيا وأوربا وأمريكا والجزء الراقي من أفريقيا هم الذين قرروا أن أهل نيجيريا وغرب أفريقيا كلهم أصلهم الزنوج.

وعلى هذا الأساس جاء إطلاق اسم النيجر على النهر الموجود بأرض النيغرو، وجاء إطلاق اسم ما حول النيجر على البلاد الواقعة شمالاً وجنوبًا

من نهر النيغرو، وجاء اسم نيجيريا يعني ما حول نهر النيجر (نيغرو) أو ما حول بلاد النيجر (نيغرو).

ولما كان في مذهب التطور لأصل الإنسان رأيان اثنان:

رأي يقول بتعدد أصل الإنسان في مختلف الأماكن فيكون إنسان **إليفى** غير إنسان آسيا وأوربا وأمريكا.

ورأي آخر يقول بتوحد أصله في مهد الإنسان الأول ومنه انتشر أفراده إلى مختلف الأماكن فيكون إنسان **إليفى** أول الخلائق ومنهم نزح الناس إلى آسيا وأفريقيا وأوربا أو يكون إنسان إليفى آخر الخلائق نزحوا ممن قبلهم من الناس.

فقد لاحظنا هذين الرأيين في رواة الأساطير والتاريخ عن قبائل يوربا حيث يزعم أهل **إليفى** أنهم أصل الخلائق هبط جدهم الأعلى من السماء إلى متسع الأرض هناك في مدينة **إليفى** ومنها نزح الناس إلى سائر الأنحاء.

خلافًا لما يزعم أهل **عويو** أنهم نزحوا من الشرق وساروا جنوبًا وغربًا حتى وصلوا هذه البلاد بعد تسعين يومًا من السير.

ولكن خلاصة القول أن نغربل الرأيين لاستخراج الحقيقة التى تعبر عن نفسها بأن السكان الأولين كانوا من الزنوج النيغر وهم الأصل في مدينة **إليفى**، وأن المهاجرين الذين وفدوا من بعد ذلك هم الأجناس الذين هجموا على الأولين وغلبوهم على أمرهم.

اليوربا الخالصة وأناغو الشائبة أو اليوربا والمتيوربه

تطلق على قبائل يوربا كلمات تشبه مترادفات لمعنى واحد وهي أناغو وعَيِيَو وأكُو فإن أهالي سيراليون يطلقون على اليوربا كلمة (أكو) وهي مشتقة من التحية بلغة يوربا كما أن بعض سكان شواطئ المحيط يطلقون عليهم كلمة (عيبو) وهي مأخوذة من عويو، والهوسا يسمون مدينتهم باسم كاتنغا ولا أعرف معناه وأصله.

ويطلق عليهم بعضهم كلمة أناغو وهي محرفة من النيغرو.

وبإمعان النظر فيما ذكرنا من الأصلين والوافدين يتضح للعاقل أن قبائل يوربا غير قبائل أناغو فإن اليوربا من الوفود الجدد، أما أناغو فإنهم من السكان الأصليين من النيغرو أي الزنوج السود.

ويمكن للباحث أن يلاحظ الفرق بين الأصليين المختلفين باختلاف اللهجة فإن اختلاف لهجات قبائل يوربا يوحي إلى العقل ضرورة اختلاف الأصل.

فإن قبائل يوربا اليوم تتفرع إلى عدة عشائر تتكلم كل عشيرة بلهجة خاصة ربما بلغت عشر لهجات، فلابد من علة لاختلاف هذه اللهجات.

فأهالي بنين الذين يتكلمون بلغة خاصة وهي (عيدو) كانوا محسوبين على قبائل يوربا ويزعمون أنهم من أبناء الجد الأعلى لليرباويين، وكذلك أهالي إيكتي بويا بالساحل لهم لغة خاصة.

وكلمة أناغو التي ترادف كلمة يوربا إنما هي بعلة هذا الفرق بين الأصلين.

ولقد صح أن الأوربيين هم الذين أطلقوا كلمة **نيغرو** على سكان غرب أفريقيا، وهذه الكلمة هي التي انحرفت على لسان أهل البلاد إلى أناغو أنيغو.

ولما جاء الحاكم الإنجليزي **الفريد مولوني** ١٨٨٤م طلب من الملك ألافن ملك يوربا المسمى **أديمي الأول** في عهد الملكة فكتوريا أن يقبل مدينة **لاغوس** التي تقع على الساحل في بلاد **أناغو** بدلاً من مدينة **كيتو** التي هي من صميم بلاد يوربا ولكنها وقعت تحت حوزة فرنسا بقرار مؤتمر برلين الذي انعقد بين الدول الأوربية المتنازعة على سواحل غرب أفريقيا. انظر ص(٥٧) من تاريخ يوربا لصمويل جونسن.

ويزعم الكاتب **أديماكينوا** أن كلمة **أناغو** تطلق على اليوربا المتحررين من البرازيل وأنهم هم الذين حملوا هذا الاسم إلى بلاد يوربا بعد تحررهم من العبودية.

فهو زعم باطل وقد قال رسول الله «بئس مطية الرجل زعموا» فعلى هذا الرجل أن يفسر للناس معنى أناغو إن لم تكن مشتقة من النيغرو.

●●●